شرح الذهبيّ الفم لتبرير إبراهيم بالإيمان (روم ٤: ١-٢٠)

العظة الثامنة

الخوري نعمة الله الخوري
باحث في الكتاب المقدس

تعلّم يوحنا فم الذهب فنّ الخطابة في مدرسة ليبانيوس الوثنيّ (+ ٣٩٣) الذي علّم البلاغة لتلاميذه الذين نعرف منهم، الى جانب الذهبي الفم، ثيودورس الذي سيصبح أسقف المصيصة (+ ٤٢٨)، ومكسيم الذي سيصبح أسقفًا على كرسي سلوقيا في ايزوريا (Séleucie d'Isaurie). استهوته الحياة النسكية التي درّبه عليها ديودور الطرسوسي (+ ٣٩٣) وكرتيريوس؛ شكّل يوحنا الذهبيّ الفم وثيودورس[١] ومكسيم مجموعة من اللاهوتيّين الذين كانوا يُصلّون معًا في إنطاكية ويتأمّلون في الكتاب المقدّس، فتعرّفوا على طريقة شرح النصوص البيبلية التي كانت معتمدة هناك، وطوّروها ووضعوا أسسها ومبادئها.

إهتمّ يوحنا الذهبيّ الفم بالرسالة الى أهل روما اهتمامًا ملحوظًا، فخصّص لها اثنتين وثلاثين عظة تتضمّن تحليلاً مُفصّلاً لتعليم الرسول العقائدي؛ العظة الثامنة[٢] التي نعالجها تشرح روم ٤: ١-٢٠، وهي تتناول عدّة مسائل: هل ينال المؤمن الخلاص بالإيمان أم بالأعمال؟ ما هو دور الإيمان والختان في تاريخ الخلاص؟ ما هي العلاقة بين الإيمان والشريعة والوعد؟ مَن يستفيد من الوعد الممنوح لإبراهيم؟

عالج الذهبيّ الفم هذه القضايا معتمدًا على الشرح الحرفي للنص البيبلي، فأعطى لكلّ كلمة وردت في تعليم بولس معناها الحرفي؛ شرح الآيات الواحدة تلو الأخرى وبيّن الترابط في ما بينها. لا ينظر الذهبيّ الفمّ الى النص الذي يعالجه نظرة شاملة، بل يغوص في أدقّ التفاصيل الواردة في الآيات ليستنتج التعاليم التي يعرضها أمام سامعيه. لا شكّ أنّ ثقافته البيبليّة والروحية تركت تأثيرًا ملحوظًا على كتاباته، لذلك نلاحظ، في العظة الثامنة، تلازمًا بين التعليم العقائدي الوارد في بداية هذه العظة، وبين الإرشادات الرعويّة التي تحثّ المؤمنين على تطبيق تعاليم الرسول في حياتهم اليوميّة.

القسم الأول: التعليم العقائدي في العظة الثامنة

أولاً: التبرير بالإيمان أم بالأعمال (روم ٤: ١-٥)

أكّد بولس في المقطع السابق (روم ٣: ٢١-٣١) أنّ الله يُبرّر أهل الختان وأهل الغرلة على حدّ سواء، شرط أن يؤمنوا، وشدّد على المساواة بين جميع الناس

(١) ترك ثيودورس رفيقيه لأن مباهج العالم استهوته وقرّر الزواج؛ لكنّ يوحنا الذهبيّ الفمّ كتب له رسالة مُؤثّرة يحثّه فيها على العودة عن قراره، فاستجاب ثيودورس لرغبة الذهبيّ الفمّ وعاد من جديد الى الحياة النسكيّة، فانضمّ الى رفيقيه؛ بشأن رسالة الذهبي الفم إلى ثيودورس المصيصي، رج: J. DUMORTIER, *Jean Chrysostome*. A Théodore, Texte, traduction et notes (SC 117; Paris 1966); PG, t. XLVII, col. 277-316.

(٢) نستند في دراستنا الى الترجمة الفرنسية كما وردت في مجموعة "الآباء في الإيمان": *Jean Chrysostome commente Saint Paul*, Traduction de Jacqueline Legée (Pères dans la Foi), Desclée De Brouwer, Paris, 1988, p. 59-83.

لأنّ الله واحد وهو يمنح البرّ للجميع. بعد أن عرض الرسول أهميّة التبرير بالإيمان، إنتقل، في هذا المقطع الذي نعالجه، الى مستوى آخر يُشدِّد على الشروط المتوفّرة لدى الإنسان لكي يحصل على هذا التبرير. تُطرَح هنا عدّة أسئلة: هل يستطيع البارّ الذي يمارس الصالحات أن ينال رضى الله؟ ألا تستطيع الأعمال وحدها أن تمنح الخلاص؟ ما هو دور الإيمان في هذه المسألة؟ أراد بولس أن يتوسّع في هذه القضايا، فوجد في إبراهيم المثال الذي يكشف الفرق بين أهميّة الإيمان وأهميّة الأعمال، لذلك يقول: "ماذا نقول في أبينا[٣] إبراهيم، وماذا جرى له[٤]؟ فلو أنّ الله برّره لأعماله لَحقّ له أن يفتخر، ولكن لا عند الله" (آ ١-٢).

أ- تبرير إبراهيم بسبب إيمانه وليس بسبب فضيلته (آ ١-٣)

عالج الذهبيّ الفم مسألة التبرير الذي يناله المؤمن، فميّز بين اليهوديّ المؤمن الذي يفتقر الى أعمال البرارة، وبين اليهودي المؤمن الذي يمارس أحكام الشريعة؛ حتى ولو قام المؤمن بأعمال الفضيلة فلن يجد وسيلة للحصول على الخلاص لأنّ الإيمان هو السبيل الوحيد لبلوغ المواعيد.

يقول الذهبيّ الفم في هذا الخصوص:

"نستطيع أن نُصدّق الفكرة التي تعتبر أنّه يُمكن لليهوديّ أن يتبرّر بسبب إيمانه فقط دون الحاجة إلى ممارسة أعمال تُقوية، غير أنّنا نذهل وتعترينا الدهشة حين نلاحظ وجود يهوديّ (إبراهيم، مثلاً) يُنفِّذ بدقّة أحكام الشريعة، ولكنّ تصرّفاته هذه لا تُجديه نفعًا ولا توصله إلى الله لأنّه بحاجة إلى أمر أساسيّ وجوهريّ وسام، وهو الإيمان.

وجد بولس، في مِثال إبراهيم، البرهان الذي يُبرز الفرق بين الإيمان والأعمال؛ كان إبراهيم بارًا وصِدّيقًا، وسيرته لا تعتريها الشوائب، ولكنّه، بالرغم من ذلك، لم يحصل على التبرير؛ فالكتاب المقدّس يُسلّط الضوء على الإيمان لذلك يقول: "آمن إبراهيم بالله فبرّره لإيمانه" (آ ٣)[٥].

حين يقف الإنسان أمام الله مؤمنًا، فهذا الموقف هو دليل على وجود نفس سخيّة مُحبّة "لِلحكمة" وتفكير سامٍ. إنّ الامتناع عن المحرّمات، كالسرقة والقتل، هي أعمال حسنة، ولكنّ هذه الممارسات هي أمور تافهة وليست مصدرًا للتباهي. يجب أن نؤمن أنّ الله قادر على صنع المستحيلات، وهذا الإيمان يفترض وجود نفس لها انفتاح واسع المدى ويتّسم بالانشداد القويّ نحو الله، وهذه هي علامة الحبّ الحقيقيّ.

صحيح أنّ الذهبي الفم يعتبر أنّ مَن يعمل الصالحات يُمجّد الله، ولكنّه، في الوقت عينه، يثني على الإنسان الذي يعيش حياة تتّسم "بالحكمة" بسبب إيمانه لأنّه يمجّد الله بطريقة أسمى. الأوّل يطيع الله ويتباهى أمامه عارضًا لائحة بأعماله الصالحة، أمّا الآخر فينال من الله التمجيد والمقام الرفيع. في الحالة الأولى، يتباهى الإنسان بسبب عمله الصالح، أمّا في الحالة الثانية فالإنسان يُمجّد الله وكلّ شيء يعود إلى الله.

لا يتمجّد المؤمن فقط بسبب حبّه الحقيقيّ نحو الله، بل أيضًا بسبب الكرامة والحبّ العظيم اللّذَين ينالهما من الله. كما أنّ المؤمن يحبّ الله ويتصوّره بشكل سامٍ، وهذه هي علامة الحبّ، كذلك أيضًا يُحبّ اللهُ هذا

(٣) لاحظ الذهبيّ الفم أنّ الرسول لم يُطلق على إبراهيم تسمية "أبانا" لأنّها تسمح لليهود باحتكار أبوّة إبراهيم، وبالتالي تُحجّب الأبوّة عن سائر الشعوب، لذلك سمّاه "أبانا بحسب الجسد" (آ ١) ليُسهّل على الوثنيّين إمكانيّة الانتماء إلى سلالة إبراهيم، وليمنع اليهود من التفكير أنّ إبراهيم هو والد الشعب الإسرائيليّ فقط.

(٤) يستشهد الذهبيّ الفم بالفولغاتا التي تعرض اختلافة في روم ٤: ١ حيث تُضيف عبارة "وماذا جرى له" التي لا نجدها في المخطوطات اليونانيّة.

(٥) راجع: *Jean Chrysostome commente Saint Paul*, p. 60.

المؤمن حتى ولو أخطأ ألف مرّة. يكافئ الله المؤمن الذي يتباهى بإيمانه ويجعله أهلاً لينال الحبّ الإلهيّ الكبير ويُبعِد عنه الدينونة.

ب - التبرير حقّ أم هبة؟ (آ ٤-٥)

يذكر الذهبيّ الفم نوعين من المكافآت: أجرة يأخذها العامل لأنها حقّ له، وقد حصل على هذا الحق بسبب عمله الشخصيّ: "من قام بعمل فأجرته حقّ لا هبة" (آ ٤)، وهبة ممنوحة من الله تفرض على الإنسان الإيمان، وهذه الهبة لا تأخذ بعين الإعتبار خطيئة هذا الإنسان ولا تجاوزاته ولا حتى أعماله الصالحة: "أمّا مَن لا يقوم بعمل، بل يؤمن بالله الذي يُبرّر الخاطئ، فالله يُبرّره لإيمانه" (آ ٥).

يشرح الذهبيّ الفمّ التمييز بين الذي ينال الأجر بسبب مجهوده الشخصيّ وبين الذي ينال النعمة بسبب إيمانه على الشكل التالي:

"لا تُحدّثوني، يقول رسول الأمم، عن يهوديّ ما، ولا تذكروا لي أيّ إنسان آخر، فأنا أعود بكم إلى الوراء، الى إبراهيم، أصل الناس جميعًا، إلى الوقت الذي ظهر فيه الختان، لأنّه "لو أنّ الله برّره لأعماله لَحقّ له أن يفتخر ولكن لا عند الله". هذه الكلمات ليست واضحة وهي بحاجة إلى تفسير؛ هناك سببان للتباهي: الأعمال أو الإيمان. يؤكّد بولس أنّ إبراهيم يستطيع أن يفتخر فقط بسبب إيمانه. تظهر هنا بوضوح قوّة تعليم بولس الذي يؤكّد أنّ الخلاص بالأعمال يرتكز على التبجّح بالسيرة الفاضلة والإطمئنان إلى حتميّة نيل المكافأة؛ ولكنّ الخلاص بالإيمان يتضمّن هاتين الميزتين، لأنّ الذي يتبجّح بسبب أعماله الشخصيّة يُسلّط الضوء على مجهوده الذاتيّ، أمّا الذي يتباهى بإيمانه بالله، فله الحقّ بالتبجّح أكثر من الآخر لأنّه لا يفتخر بسبب أعماله الصالحة، بل لكونه يؤمن بالله؛ فالإفتخار بالإيمان بالله هو أسمى من التباهي بسبب الأعمال، لأنّ الإيمان يُمجّد الله ويُعظّمه. يكشف الإيمان بالله عن الخفايا التي لا تستطيع الأشياء المنظورة أن تُدركها"[٦].

إنّ التفسير الحرفيّ للكتاب المقدّس دفع الذهبيّ الفم إلى الملاحظة أنّ الرسول لا يقول في آ ٥ إنّ الله يُبرّر "المؤمن" بسبب إيمانه، بل بالأحرى: إنّ الله يُبرّر "مَن يؤمن بالله الذي يُبرّر الخاطئ"؛ لم يعد الإيمان فكرة مُجرّدة أو شيئًا غامضًا يتحلّى به الإنسان، بل هو عمل حسّي ملموس يقضي بالاعتراف أنّ الله يُسامح الخطأة ويمحو زلاّتهم ويُبرّرهم بسبب إيمانهم. الإيمان أمر مهمّ يقضي بأن نقتنع أنّ الله يُنجّي الإنسان الخاطئ من العقاب ويجعله بارًّا وأهلاً لنعمة عدم الموت. يقول الذهبيّ الفم:

"مَن يعمل الصالحات ينال أجرًا محدودًا، أمّا الإنسان الذي يعيش حياة بعيدة عن الفضائل، ولكنّه يؤمن بالله، فهو ينال النعمة لأنّه أظهر إيمانًا كبيرًا بالله، لذلك تكون مكافأته أكبر. الأوّل ينال الأجر والآخر ينال التبرير، ونحن نعلم أنّ التبرير أسمى من الأجر. التبرير هو المكافأة التي تتضمّن في طيّاتها كلّ أنواع الأجر"[٧].

ثانيًا: تبرير الخطأة في مزامير داود (روم ٤: ٦-٨)

بعد التأكيد على تبرير إبراهيم بسبب إيمانه وليس بسبب أعماله، يستشهد بولس بمزامير داود ليُبرهن صحّة تعليمه. حين مدح صاحب المزامير سعادة الإنسان الذي يُبرّره الله دون الحاجة إلى أعماله، قال: "طوبى لِمَن خطاياه لا يُحاسبه بها الرب" (آ ٨؛ رج مز ٣٢: ١ف)؛ هذا البرهان الذي استقاه الرسول من المزامير لا يُطوّب الإنسان الذي يتباهى بسبب أعماله الصالحة ولكنّه، بالأحرى، يُعطي الطوبى لِمَن نال النعمة والمغفرة عن خطاياه.

(٦) راجع: *Jean Chrysostome commente Saint Paul*, p. 60-61.

(٧) المرجع السابق، ص ٦٢.

غير أنّ الذهبيّ الفم يُلاحظ أنّ كلام داود لا يبدو متطابقًا كلّيًا مع التحليل السابق، بل هو مناسب بشكل جزئيّ؛ فلو قال داود: "طوبى للّذي اعتُبِر إيمانه برًّا" لكان البرهان متطابقًا بشكل تام مع حالة إبراهيم، ولكنّه يُؤكّد أنّ الخاطئ الذي غُفِرت خطاياه هو الذي سينال الطوبى؛ يلاحظ بولس وجود قاسم مشترك بين الطوبى التي ينالها الخاطئ الذي غُفِرت خطاياه وبين الطوبى التي ينالها إبراهيم البار: في الحالتين الطوبى هي هبة من الله فلا إبراهيم يستحقّ الطوبى بسبب إيمانه، ولا الخاطئ يستحقّ هذه الطوبى نظرًا لخطاياه. يقول الذهبي الفم:

"حين شاء بولس، كما عرضنا أعلاه، أن يُؤكّد منفعة الذي حصل على مغفرة خطاياه، لم يستشهد بالكتاب المقدّس بل استند إلى برهان مأخوذ من الحياة اليوميّة: "مَن قام بِعَمَل فأجرته ليست هبة" (آ ٤)؛ ولكن حين أراد الرسول الآن أن يؤكّد منفعة المؤمن، استشهد بالكتاب المقدّس الذي يُقدّم برهانًا صلبًا وأكيدًا حيث يقول: "طوبى للّذين غُفِرَت ذنوبهم وسُتِرَت خطاياهم" (آ ٧؛ رج مز ٣٢: ١). لماذا تُعتَبَر المغفرة عطيّة وهبة وليست حقًّا يناله الخاطئ؟ الجواب واضح: كما أنّ البارّ ينال الطوبى دون أن يستحقّها، كذلك فإنّ الخاطئ الذي تُرِكَت خطاياه ينال الطوبى دون أن يستحقّها لأنّها هبة ممنوحة"[٨].

يعتبر بولس أنّه حيث تُوجد الطوبى فهناك يتلاشى الخزي والهوان ويتجلّى المجد، فالطوبى هي مُكَمِّلة للأجر وهي قمّة كلّ العطايا. كما أنّ البرّ، في خَبَر إبراهيم، هو أسمى من الحقّ (أو الأجرة) فإنّ الطوبى الآن، في خَبَر داود، هي أسمى من البرّ.

ثالثًا: الطوبى للمختونين أم لغير المختونين؟ (آ ٩)

من يستطيع أن ينال الطوبى: المختون أم غير المختون؟ يلاحظ الذهبي الفم أنّ هذه العطيّة تنطبق على غير المختونين، بالرغم من أنّ داود الذي أعلن الطوبى كان مختونًا؛ هنا نتساءل: كيف استطاع بولس تطبيق الطوبى على غير الختان؟ حاول أولاً أن يربط هذه الطوبى التي أعلنها داود بالبرّ الذي ناله إبراهيم، فبرهن عن وحدة الطوبى والبرّ؛ بما أنّ الطوبى والبرّ يُشكّلان وحدة جوهريّة، وبما أنّ إبراهيم تبرّر قبل الختان، نستنتج إذًا أنّ الطوبى تنطبق على غير الختان.

هنا تبرز مشكلة، فربما يتساءل أحدهم قائلاً: ما هي فائدة الختان طالما أنّ إبراهيم تبرّر قبل الختان؟ يجيب الرسول فورًا: الختان هو مجرّد علامة تؤكّد أنّ إبراهيم تبرّر بسبب إيمانه (٤: ١١). نال إبراهيم إكليل المجد قبل الختان، ثمّ اختُتن في ما بعد؛ هذا يعني أنّ إبراهيم ، قبل الختان، هو أبٌ لغير المختونين ثمّ أضحى، بعد الختان، أبًا للمختونين. إبراهيم هو أبٌ لغير المختونين الذين يرتبطون به بالإيمان، وهو، في الوقت عينه، أبٌ للمختونين؛ هو إذًا الجدّ الأوّل لسلالتَين! هنا يتجلّى بهاء الإيمان وإشراقه: نال إبراهيم التبرير بعد أن آمن بمواعيد الرب. إنّ عدم الختان ليس عائقًا يحجب البرّ لأنّ إبراهيم كان غير مختون، ولكنّ هذا لم يمنع عنه التبرير.

رابعًا: الختان أدنى من الإيمان ويليه زمنيًّا (آ ١٠)

لا عجب إذا سبق الإيمان الختان وغير الختان على السواء. الختان هو أدنى من الإيمان، لا بل هو أصغر منه مقامًا؛ كما أنّ العَلَم هو علامة تدلّ على الوطن، وبالتالي فإنّ العلامة هي أدنى من الشيء الذي ترمز إليه، كذلك الختان هو علامة للإيمان وهو أدنى منه. لم يكن إبراهيم شخصيًّا بحاجة إلى الختان، ولكنّه ناله ليُصبح أبًا للمختونين وغير المختونين في آنٍ معًا.

لا يُعتَبر إبراهيم أبًا لغير المختونين لأنه كان قبلاً غير مختون، بل هو أب لهم لأنّهم تشبّهوا بإيمانه، وهذا هو معنى عبارة : "صار إبراهيم أبًا لجميع الذين

(٨) المرجع السابق، ص ٦٢-٦٣.

يُبرّرهم الله لإيمانهم من غير المختونين" (آ ١١)؛ من ناحية أخرى، يُعتبَر إبراهيم أبًا للمختونين لأنّهم اختُتنوا ولأنّهم، فضلاً عن ذلك، لم يكتفوا بالختان، بل اقتدوا بإيمان إبراهيم قبل أن ينال الختان (آ ١٢).

يقول الذهبيّ الفم :

"يعتبر بولس أنّ إبراهيم قَبِل الختان ليُصبح الجدّ الأوّل للمختونين وغير المختونين، ولكي لا يحدث نزاع بين الشعبين. هل ترون أنّ غير المختونين حصلوا على أبوّة إبراهيم قبل أهل الختان. يستحقّ الختان الاحترام لأنّه تعبير عن التبرير، ولكنّ غير الختان، هو بدوره، له مكانة مرموقة لأنّ إبراهيم آمن قبل الختان. تستطيعون إذًا أن تكونوا أبناء إبراهيم إذا اقتديتم به وآمنتم مثله دون الحاجة إلى النزاع أو الخصام حول أهميّة الشريعة.

قولوا لي، عن أيّ إيمان يجري الحديث هنا؟ طبعًا عن الإيمان قبل الختان. يتهجّم بولس من جديد على تباهي اليهود وتبجّحهم، ويُذكّرهم بزمن إبراهيم، زمن التبرير، ويقول بصواب: "يقتدون بإبراهيم" لتؤمنوا، مثلما فعل إبراهيم، بقيامة الأموات. إذا نبذتم غير المختونين، إعلموا جيّدًا وبوضوح أنّ الختان لن ينفعكم بشيء. إن لم تسيروا على خطى إبراهيم وتتشبّهوا بإيمانه، فلن يُجديَكم الختان نفعًا؛ حتى ولو كنتم ألف مرّة مختونين، لن تصبحوا ورثة إبراهيم الذي نال الختان لكي لا يكون غير المختونين منبوذين. الختان الذي كان يفيدكم سابقًا لستم بحاجة إليه بعد الآن"[٩].

خامسًا: الختان مجرّد علامة (آ ١١- ١٢)

أورد الذهبيّ الفم أعلاه رمزيّة العَلَم، فبَرهن أنّ هذه العلامة الحسيّة ترمز إلى الوطن، وهكذا تكون العلامة أدنى من الشيء الذي ترمز إليه. الآن، يُقدّم يوحنا الذهبيّ الفم مَثَل المغلّف المختوم والفارغ من الداخل ليُبيّن الفرق الجذريّ بين الإيمان والختان: الختان هو علامة حسّية (آ ١١) وملموسة، ولكنّها ترمز إلى حقيقة عميقة وهي الإيمان. يؤكّد الذهبيّ الفم أنّه، بوجود الإيمان، أضحى الختان بدون جدوى، لذلك يقول:

"تقولون إنّ الختان علامة البرّ؛ طبعًا، ولكنّ هذه العلامة كانت ضروريّة لمنفعتكم، أمّا الآن، فالحال ليست كذلك؛ كنتم، في ذلك الحين، بحاجة إلى علامات حسّية، ولكنّها أضحت الآن غير نافعة. تقولون: ألم يكن بالإمكان التعرّف على فضيلة إبراهيم انطلاقًا من إيمانه فقط؟ طبعًا كان هذا الأمر ممكنًا، ولكنّكم كنتم بحاجة إلى هذه العلامة الزائدة وغير الأساسيّة. بما أنّكم لم تتشبّهوا بفضيلة إبراهيم و لم تستطيعوا الإحساس بها، أُعطِيَ لكم الختان، وهو علامة حسّية، لكي تتمرّسوا وتتدرّبوا شيئًا فشيئًا بواسطتها لتستطيعوا الوصول إلى حكمة النفس.

يقول الرسول: "ليكون أبًا للمختونين الذين لا يكتفون بالختان، بل يقتدون بأبينا إبراهيم في إيمانه قبل أن ينال الختان" (آ ١٢)؛ هذا يعني أنّ الختان ليس فقط علامة جسديّة، بل يُضاف إليها التشبّه بإيمان إبراهيم، فأضحى للختان معنىً روحيّ؛ إذا اكتفيتم بالختان فقط فلن يفيدكم شيئًا لأنّه ليس سوى علامة بسيطة، في حين أنّ المرموز إليه، أي الإيمان، هو فيكم.

إن لم تقتنوا الإيمان، فالعلامة لا قيمة لها لأنّها، في هذه الحالة، لا ترمز إلى شيء؛ مثال على ذلك: حين تفتحون مُغلّفًا مختومًا وتجدونه فارغًا، فالمغلّف لا معنى له. هذه هي الحال مع علامة الختان التي تفقد معناها في حال غياب الإيمان. إن كان الختان علامة البرّ، وأنتم لا تملكون البرّ، فإنّكم لا تملكون حتى العلامة. لقد نلتم علامة الختان لتبحثوا عن الشيء الذي ترمز إليه (الإيمان)، فلو كانت نيّتكم البحث عن الشيء المرموز إليه دون العودة الى

(٩) المرجع السابق، ص ٦٥.

العلامة، فلستم بحاجة قطعًا إلى هذه العلامة الزائدة"[١٠].

سادسًا: تفوّق الإيمان على الشريعة (آ ١٣-١٤)

تُعلّمنا الشريعة أن نميّز بين الخطأ والصواب، ولكنّ الإيمان ظهر قبل الشريعة، لذلك هو أسمى منها. يبرهن بولس أنّه لا يمكن الحصول على الميراث بواسطة الشريعة، لذلك يضع الإيمان والشريعة وجهًا لوجه ويقول: "لو اقتصر الميراث على أهل الشريعة لكان الإيمان عبثًا" (آ ١٤). لا نستطيع أن نجاهر بالإيمان وأن نراقب أحكام الشريعة في آنٍ معًا، لأنّ الذي يتعلّق بالشريعة ويعتبرها خشبة خلاص يحتقر قدرة الإيمان، لهذا السبب يقول: "يكون الإيمان عبثًا" ثمّ يردف قائلاً: "يكون الوعد باطلاً" (آ ١٤). ربما تساءل اليهوديّ: ماذا يفيدني الإيمان؟ إذا تخلّى الإنسان عن الإيمان، تلاشى الوعد.

سابعًا: الوعد يرتبط أيضًا بالإيمان (آ ١٥-١٦)

يعرض الذهبيّ الفم علاقة الإيمان بالوعد، فيعتبر أنّ الوعد بالميراث هو أهمّ شيء بالنسبة إلى اليهوديّ، لكنّه لا يتحقّق بمعزل عن الإيمان. ربما تساءل يهوديّ ما قائلاً: "ماذا أستفيد إذا تبرّر إبراهيم بالإيمان؟" يجيب بولس أنّ المنفعة تكمن في الوعد باقتناء خيرات العالم، وفي البركة التي يحصل عليها جميع الناس بواسطته. بعد ذلك يشرح بولس كيف يُبطَل الوعد: "لأنّ الشريعة تُسبّب غضب الله، وحيث لا تكون شريعة لا تكون معصية" (آ ١٥).

"إذا سبّبت الشريعة الغضب فإنّها تجعلنا خطأة بسبب تجاوزاتنا؛ يتّضح هنا أنّ الشريعة تجرّ أيضًا اللعنة؛ لكنّ الذين يرزحون تحت التجاوزات ويستحقّون العقاب واللعنة، ليسوا أهلاً للميراث بل للعقاب والسبي. ماذا يحدث آنذاك؟ يأتي الإيمان، مدفوعًا بالنعمة، فيتحقّق الوعد؛ حيث تكون النعمة هناك تكون المغفرة، وحيث يُوجَد الغفران، لا توجد دينونة أو عقاب. إذا تلاشى العقاب، يأتي البرّ بواسطة الإيمان، ولا شيء يمنعنا من أن نرث الوعد المتحدّر من إيماننا. كذلك يقول: "الميراث قائم على الإيمان حتى يكون هِبة، ويبقى الوعد جاريًا على نسل إبراهيم كلّه، لا على أهل الشريعة وحدهم، بل على المؤمنين إيمان إبراهيم أيضًا وهو أبٌ لنا جميعًا"[١١] (آ ١٦).

لا يُثبّت الإيمان الشريعة فقط، بل يمنع سقوط وعد الله. الشريعة، بالعكس، تلغي الإيمان، وتمنع الوعد إذا طبّقناها في غير مسارها. يبرهن هنا بولس أنّ الإيمان نافع، ولكنّه أيضًا ضروريّ لدرجة أنّه، من دونه، يستحيل الخلاص. سبّبت الشريعة الغضب لأنّ الجميع تجاوزوها، لذلك يأتي الإيمان ليُزيل الغضب، فحيث لا توجَد شريعة لا يُوجَد تجاوز (آ ١٥).

ثامنًا: الوعد يمتدّ الى كلّ النسل (آ ١٦-١٧أ)

بواسطة النعمة، يمحو الإيمان الخطيئة التي يقترفها الإنسان، وأكثر من ذلك، يمنعها من الظهور. الهدف من ذلك المحافظة على ثبات الوعد لكلّ نسل إبراهيم. المنافع الممنوحة لها ميزتان: إنّها ثابتة وتمتدّ الى كلّ النسل. هذا يعني أنّ الوعد يشمل غير المؤمنين، لذلك سيكون اليهود مرذولين إذا قاوموا الإيمان. هذا الإيمان هو أكثر متانة من الشريعة وأشدّ صلابة منها. الإيمان لا يؤذيكم، بل يُخلّصكم، في حين أنّ الشريعة تضعكم في المخاطر.

إنّ عبارة "كلّ النسل" (آ ١٦) تتضمّن حكمًا النسل المؤمن وتقصي غير المؤمنين، لأنّ الرسول يُحدّد بوضوح في الآية عينها أنّ الوعد يستفيد منه فقط الذين آمنوا إيمان إبراهيم. يُقيم

(١٠) المرجع السابق، ص ٦٦-٦٧.

(١١) المرجع السابق، ص ٦٨.

الرسول قرابة بين جميع الأمم على أساس الإيمان ويبرهن أنّ الذين لا يقتنون إيمان إبراهيم هم غرباء عنه.

إنّ الاستشهاد بالكتاب المقدّس، "جعلتك أبًا لشعوب كثيرة" (تك ١٧: ٤؛ رج آ ١٧)، يؤكّد صحّة تحليل الرسول حول أبوّة إبراهيم التي تشمل جميع الأمم، فقد نظّم الله، بعنايته، كلّ الأمور منذ الأزل؛ ولكن لن تستفيد جميع الشعوب من الوعد، فالإسماعيليّون والعمالقة وأبناء هاجر ليسوا معنيّين بالخلاص، والبرهان على ذلك أنّ الرسول سيؤكّد لاحقًا، في آ ١٩، أنّ نسل إسحق وحده هو المقصود، لأنّ سارة والدته كانت عاقرًا، وإبراهيم كان ابن نحو مئة سنة حين تحقّق الوعد الخلاصي (آ ١٨- ١٩).

"هنا يأتي الرسول على ذكر أبوّة الله (آ ١٧): كما أنّ الله هو أبٌ لجميع الناس، كذلك الحال مع إبراهيم؛ ليست أبوّة إبراهيم للناس على المستوى الجسدي والمادي، بل برباط الإيمان، وهذه هي حال إبراهيم الذي استطاع، بواسطة خضوعه لإرادة الله، أن يكون أب الجميع.

تعلّق اليهود بأبوّة إبراهيم، و لم يعترفوا بأبوّة الله التي كانت بالنسبة إليهم ثانويّة؛ يؤكّد بولس أنّ الإعتراف بأبوّة الله هو أسمى من التعلّق بأبوّة إبراهيم؛ نال إبراهيم الأبوّة مكافأةً على إيمانه؛ فلو لم يكن مؤمنًا لما أضحى أبًا للجميع. المفارقة تكمن في أنّ الإيمان منحه الإمكانيّة بأن يكون أبًا لنسلٍ كبير، مع العلم أنّ الشعوب المشار اليها ليست من سلالته الجسديّة"[١٢].

تاسعًا: الرجاء على غير رجاء (١٧ب-١٨)

يتطرّق بولس الآن إلى قيامة الأموات التي تتحقّق على يد الله: بما أنّ الله قادر على أن يقيم الموتى، وأن يدعو ما ليس موجودًا وكأنّه موجود (آ ١٧ب)، فهو قادر إذًا أن يجعل الأبناء الذين ليسوا من زرع إبراهيم أن يدخلوا ضمن سلالته. لم يستعمل بولس في هذه الآية كلمة "خَلَقَ" أو "أنتَجَ" للدلالة على ظهور الأمور غير الموجودة في الوجود، بل استعمل كلمة "دعا"، وهذا يؤكّد أنّ الله يحقّق عمليّة الخلق بسهولة، وهو ليس بحاجة إلى مجهود ليخلق الكائنات. بعبارة أخرى، إنّ دعوة الأشياء إلى الوجود هي أسهل من خلقها.

بعد أن أكّد الرسول أنّ عطيّة الله هي كبيرة وفائقة الوصف، وبعد أن شدّد على قدرته الإلهيّة، برهن أنّ إبراهيم كان أهلاً لهذه الهبة بسبب إيمانه، وهو يستحقّ فعلاً هذه الكرامة.

كيف آمن إبراهيم راجيًا على غير رجاء؟ إنّ رجاء إبراهيم يختلف عن رجاء الإنسان، لأنّه وضع رجاءه في وعد الله الذي لا يُصدّقه العقل البشريّ. لم يؤمن إبراهيم أنّ وعد الله يتعلّق بجميع الشعوب، بل بنسل مُحدَّد تلده سارة، المرأة العاقر، في حين أنّ زوجها تجاوز المئة سنة (آ ١٩)؛ إنّ مكافأة إبراهيم بسبب إيمانه تتحدّد إذًا بنسل إسحق حصريًا، وليس المقصود نسل إسماعيل.

عاشرًا: العقبات التي واجهها إبراهيم (آ ١٩-٢٠)

عرض الرسول عدّة صعوبات، ولكنّ البارّ تجاوزها جميعًا؛ الصعوبة الأولى: لا يقبل الرجاء البشريّ الفكرة القائلة إنّ العاقر أو من تجاوز المئة عام يستطيع أن يُرزق ابنًا. الصعوبة الثانية: لم يسمع أحد، قبل إبراهيم، أنّ ولادة طفل من عاقر هي ممكنة، ولكن بعد أن حصل إبراهيم على المكافأة، أصبح هذا الأمر متداولاً وهذا يعني أنّه كان صعبًا على إبراهيم تصديق وعد الله العجيب. الصعوبة الثالثة: كان جسده شبه ميت والصعوبة التي تليها: كانت ساره عاقرًا. بالرغم من كلّ هذه الصعوبات، ما شكّ في وعد الله، بل قوّاه إيمانه (آ ٢٠). لم يحصل من الله على أيّة علامة أو برهان، بل سمع منه مجرّد كلمات

(١٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

ووعود شفويّة لا تقبلها الطبيعة البشريّة. نتعلّم هنا أنّه حتى وإن وعدنا الله أمورًا غير مسبوقة نكون حمقى إن رفضنا تصديقها.

القسم الثاني: توجيهات عمليّة لتنمية حياة المؤمنين

إنطلق الذهبيّ الفم من خاتمة آ ٢٠ التي تشير إلى تمجيد الله ليُوجّه توصياته التي تُطبّق تعليم الرسول العقائدي على حياة المستمعين، لأنّ الهدف من العظة هو دائمًا تأوين كلام الله. نمجّد الله بامتناعنا عن التصرّفات العصبيّة المضطربة التي تجعلنا خطأة. يجب أن نتّخذ لنا إبراهيم مثالاً نقتدي به لأنّه، بعد أن نال التبرير، مجّد الله وهذه هي علامة الحبّ الحقيقي التي يعرضها القديس متى: "ليُضئ نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويُمجّدوا أباكم الذي في السماوات" (مت ٥، ٤٦). ليس الله بحاجة الى مجد الناس؛ فالمؤمنون هم الذين يستفيدون حين يرفعون المجد إلى الله. إنّ الإيمان هو علامة تدلّ على عظمة النفس وكرامتها، في حين أنّ عدم الإيمان يجعلنا ننحدر إلى مستويات أدنى من مستويات البشر. حين يلومنا البعض بسبب إيماننا، فإننا في الوقت عينه نحزن لبؤسهم وتعاستهم.

بعد ذلك ينتقل الذهبيّ الفم إلى عدة نواح من الحياة الروحيّة، ولكنّه يبتعد الآن بشكل ملحوظ عن التعليم العقائدي الوارد في العظة ليعالج توجيهات رعويّة تغذّي حياة المؤمنين الروحيّة؛ هذه التوجيهات تحضّ المؤمنين على الاقتداء بيسوع والابتعاد عن التجربة؛ نجد تشديدًا على العشاء الإفخارستي، وعلى أهمية المحبة بين أعضاء الجماعة المسيحيّة، وعلى ضرورة مساعدة الأخ المجروح والمصاب. هذه الخواطر الروحية لا تمتّ إلى العظة بصلة، ولكنّها ضروريّة لإرشاد الجماعة إلى خيرها الروحي.

خاتمة

إستطاع الذهبيّ الفم أن يُلقي نظرة شاملة على تاريخ الخلاص، فانطلق من إيمان إبراهيم، واستشهد بتعليم داود الذي يُطوَب الخطأة الذين نالوا التبرير، وبرهن أنّ وعود الله تمتدّ إلى جميع المؤمنين دون تمييز في ما بينهم. يريد الذهبيّ الفم أن يستأصل النزاعات التي تنشأ ضمن الجماعة المسيحيّة بهدف توحيد جميع الأبناء الذين يتّخذون لهم أبًا واحدًا آمن بالله فتبرّر.

شدّد الذهبيّ الفم على أهمية الإيمان، ولكنّه أخفق في إظهار مجهود الإنسان الشخصي للحصول على الخلاص. إنّ قراءته الحرفيّة للنص لم تسمح له بالإطلالة، ولو بشكل عابر، على رسالة يعقوب التي تؤكّد: "ماذا ينفع الإنسان أن يدّعي الإيمان من غير أعمال؟ أيقدر هذا الإيمان أن يُخلّصه؟" (يع ٢: ١٤). مهما يكن من أمر، فقد تمكّن الذهبيّ الفم من شرح تبرير إبراهيم بسبب إيمانه بطريقة وافية فعرض الإطار العام وترك للشراح مهمّة الغوص في تفاصيل دقيقة لم يتوصّل إليها معاصروه.